

هل نحن ديمقراطيون ؟

كاظم الشبيب

عكاظ

2007-01-09

هذا السؤال، لو حاول كل واحد منا في الوطن العربي الإجابة عنه، كيف ستكون النتيجة؟ بالطبع سنتباين النظرة للموضوع باختلاف زاوية النظر إليه، كما لو تناولناه أحدنا منطلقاً من دائرته الشخصية، ثم توسّع ثاب نحو الدائرة الاجتماعية والثقافية، وانتقل ثالث إلى الدائرة الأكبر والأوسع دائرة الوطن بما تحويه من تنوع اجتماعي وتعددية ثقافية وفكرية وتراكم سياسي طويل المدى.

وبمقدار طبيعة وحجم الثقافة الديمقراطية التي يُؤمن بها كل فرد في أي مجتمع، ويعمل بمفرداتها في دائرته الخاصة، داخل بيته وعمله ومحيطه الاجتماعي، من خلال ذلك يمكننا تحديد مستوى وجود وحجم الديمقراطية في الدوائر الأخرى. هذا من ناحية أولى. من ناحية ثانية، قد يعكس، في أغلب الأحيان، مستوى ونوع تفاعل أبناء المجتمع، ومقدار قربهم أو بعدهم، من مواضيع الشأن العام الاجتماعية والثقافية والسياسية، يعكس مستوى الوعي الديمقراطي عند المواطن. لذا فإنه وبمقدار ما يرتفع وعي المواطن بالديمقراطية يزداد الحضور الديمقراطي في المجتمع والوطن. وبمقدار محاولات المجتمع والوطن نحو تفعيل وإشراك المواطن في الشأن العام زاد وعيه الديمقراطي ونما.

ولكن المشكلة في معظم أقطار العالم الثالث، غياب أو ضعف - يتراوح الأمر من بلد إلى آخر - الثقافة الديمقراطية عند الفرد، وضعف المحاولات الاجتماعية والوطنية الدافعة بالمواطن لتحمل مسؤولياته المتعلقة بالشأن العام أو إشراكه فيها. من هنا، لا يمكن التسليم بالإدعاء القائل بأن بعض الصور للممارسات الديمقراطية في الوطن العربي هي ولادة الظروف أو الضغوط المحيطة بالوطن العربي إقليمياً ودولياً فحسب، لأن في ذلك تجاوزاً غير منطقي للتفاعلات الكيميائية الداخلية الخاصة بكل بلد، كطبيعة التركيبة السكانية ومكونات الاجتماع السياسي فيه أو ما أشبه.

فإذا تابعنا بعض الصور أو التحولات نحو الديمقراطية في البلدان العربية، كالانتخابات الموريتانية الأخيرة 2006/11 في صبغتها التعددية يُتوقع أن تساهم في بناء علاقات طبيعية بين الأطراف الموريتانية. وفي البحرين جرت انتخاباتها النيابية في 2006/11 أيضاً ووصفتها المعارضة بالنزاهة. وفي مصر دخل الإخوان البرلمان بعدد من المقاعد فاق التوقعات في حينها. وفي المملكة خاض المجتمع السعودي تجربة متقدمة من خلال الانتخابات البلدية، وأنهى مؤخراً المرحلة السادسة من الحوار الوطني. وأنهت دولة الإمارات مؤخراً تجربتها الانتخابية مع دخول أول امرأة خليجية بالانتخاب للمجلس النيابي. أما في لبنان، وهي من أقدم ديمقراطيات الوطن العربي، فتعيش باسم الديمقراطية أسخن الصراعات الديمقراطية بين المعارضة والسلطة.

لا يمكن التسليم بأن كل تلك الصور نتيجة لمجريات وسياقات الخارج، الإقليمية منها والدولية. لأن كل صورة منها خاضعة لظروفها الداخلية أكثر منها انصياعاً لمعطيات خارجية صرفة. نعم، لا يمكن أيضاً نكران تأثير المحيط على ما يحيطه، ولكن ليس بمعنى ارتباط الداخل في جميع إر هاصاته وتفاعلاته بالظروف الخارجية دائماً. بل إن طبيعة وقوة أطراف كل داخل عربي وتماسكهم الوطني وغلبة لغة الحوار بينهم على لغة التهميش، وتغليب الأنا الوطنية على الأنا الطائفية والقبلية والفئوية.. كل ذلك يجعل من الصعب على الخارج التدخل في شؤون أي بلد عربي.

هل نحن ديمقراطيون؟. الجواب: بين لا ونعم. لأننا كيفما قرأنا أنفسنا لا يعني أننا أجدنا القراءة. ومن جهة أخرى، فإن صفحات كل مواطن عربي تحتوي على تطلعات غير محدودة، وفي الوقت ذاته مليئة بالهموم التي لا تتجلي إلا بدعم الخطط التنموية بكل بلد عربي. وهنا يبرز سؤال مهم: هل تأتي الديمقراطية دون تنمية، أم أن التنمية تسبق الديمقراطية؟. والله من وراء القصد